قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن الأسود بن قيس قال سمعت جندبا يقول : اشتكى النبي صلى ا عليه وسلّم فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتت امرأة فقالت يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل ا D : { والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى } رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق عن الأسود بن قيس عن جندب هو ابن عبد ا البجلي ثم العلقي به وفي رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس سمع جندبا قال أبطأ جبريل على رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال المشركون ودع محمدا ربه فأنزل ا تعالى : { والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى } وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد ا الأودي قالا حدثنا أبو أسامة حدثني سفيان حدثني الأسود بن قيس أنه سمع جندبا يقول رمي رسول ا صلى ا عليه وسلّم بحجر في أصبعه فقال : [هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل ا ما لقيت ؟] .

قال فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم فقالت له امرأة ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت { والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى } والسياق لأبي سعيد قيل : إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب وذكر أن أصبعه عليه السلام دميت وقوله هذا الكلام الذي اتفق أنه موزون ثابت في الصحيحين ولكن الغريب ههنا جعله سببا لتركه القيام ونزول هذه السورة فأما ما رواه ابن جرير حدثنا ابن أبي الشوارب حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا سليمان الشيباني عن عبد ا بن شداد أن خديجة قالت للنبي صلى ا عليه وسلّم : ما أرى ربك إلا قد قلاك فأنزل ا { والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى } وقال أيضا : حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن هشام بن عروة عن أبيه قال أبطأ جبريل على النبي صلى ا عليه وسلّم فجزع جزعا شديدا فقالت خديجة إني أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك قال فنزلت { والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى } إلى آخرها فإنه حديث مرسل من هذين الوجهين ولعل ذكر خديجة ليس محفوظا أو قالته على وجه التأسف والحزن وا أعلم .

وقد ذكر بعض السلف منهم ابن إسحاق أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم حين تبدى له في صورته التي خلقه ا عليها ودنا إليه وتدلى منهبطا عليه وهو بالأبطح { فأوحى إلى عبده ما أوحى } قال : قال له هذه السورة { والضحى * والليل إذا سجى } قال العوفي عن ابن عباس : لما نزل على رسول ا صلى ا عليه وسلّم القرآن أبطأ عنه جبريل أياما فتغير بذلك فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه فأنزل ا { ما ودعك ربك وما قلى } وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء { والليل إذا سجى

} أي سكن فأظلم وادلهم ؟ قاله مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد وغيرهم وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا كما قال تعالى : { والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى } وقال تعالى : { فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم } وقوله تعالى : { ما ودعك ربك } أي ما تركك { وما قلى } أي وما أبغضك .

{ وللآخرة خير لك من الأولى } أي وللدار الاخرة خير لك من هذه الدار ولهذا كان رسول ا صلى ا عليه وسلّم أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها إطراحا كما هو معلوم بالضرورة من سيرته ولما خير عليه السلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة وبين الصيرورة إلى ا D اختار ما عند ا على هذه الدنيا الدنية قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبد ا هو ابن مسعود قال : اضطجع رسول ا صلى ا عليه وسلّم على حصير فأثر في جنبه فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت : يا رسول ا ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئا ؟ فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها] ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المسعودي به وقال الترمذي حسن صحيح .

وقوله تعالى : { ولسوف يعطيك ربك فترضى } أي في الدار الاخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته وفيما أعده له من الكرامة ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف وطينه مسك أذفر كما سيأتي وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد ا بن أبي المهاجر المخزومي عن علي بن عبد ا بن عباس عن أبيه قال : عرض على رسول ا صلى ا عليه وسلّم ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزا كنزا فسر بذلك فأنزل ا { ولسوف يعطيك ربك فترضى } فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم رواه ابن جرير من طريقه وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف وقال السدي عن ابن عباس من رضاء محمد صلى ا عليه وسلّم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقال الحسن : يعني بذلك الشفاعة وهكذا قال أبو جعفر الباقر وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا معاوية بن هشام عن علي بن صالح عن يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد ا قال : [قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : إنا أهل بيت اختار ا لنا الاخرة على الدنيا ولسوف يعطيك ربك فترضى] .

ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد صلوات ا وسلامه عليه : { ألم يجدك يتيما فآوى } وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه وقيل بعد أن ولد عليه السلام ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه ا على رأس أربعين سنة من عمره هذا وأبو طالب على دين قومه

من عبادة الأوثان وكل ذلك بقدر ا وحسن تدبيره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم فاختار ا له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج كما أجرى ا سنته على الوجه الأتم الأكمل فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه Bهم أجمعين وكل هذا من حفظ ا له وكلاءته وعنايته به .

وقوله تعالى : { ووجدك ضالا فهدى } كقوله : { وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا } الاية ومنهم من قال إن المراد بهذا أن النبي صلى ا عليه وسلّم ضل في شعاب مكة وهو صغير ثم رجع وقيل إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكبا ناقة في الليل فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالراحلة إلى الطريق حكاهما البغوي وقوله تعالى : { ووجدك عائلا فأغنى } أي كنت فقيرا ذا عيال فأغناك ا عمن سواه فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر صلوات ا وسلامه عليه وقال قتادة في قوله : { ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى } قال : كانت هذه منازل رسول ا A قبل أن يبعثه ا D رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وفي الصحيحين من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : [قال رسول ا A : ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس] وفي صحيح مسلم عن عبد ا بن عمرو قال : [قال رسول ا A : قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه ا بما آتاه] .

ثم قال تعالى : { فأما اليتيم فلا تقهر } أي كما كنت يتيما فآواك ا فلا تقهر اليتيم أي لا تذله وتنهره وتهنه ولكن أحسن إليه وتلطف به قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم { وأما السائل فلا تنهر } أي وكما كنت ضالا فهداك ا فلا تنهر السائل في العلم المسترشد قال ابن إسحاق : { وأما السائل فلا تنهر } أي وكما كنت ضالا فهداك ا فلا تنهر السائل في العلم المسترشد قال ابن إسحاق { وأما السائل فلا تنهر } أي فلا تكن جبارا ولا متكبرا ولا فحاشا ولافظا على الضعفاء من عباد ا وقال قتادة يعني رد المسكين برحمة ولين { وأما بنعمة ربك فحدث } أي وكما كنت عائلا فقيرا فأغناك ا فحدث بنعمة ا عليك كما جاء في الدعاء المأثور النبوي : [واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتمها علينا] وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا سعيد بن إياس الجريري عن أبي نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها .

وقال عبد ا بن الإمام أحمد : حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا الجراح بن مليح عن أبي عبد الرحمن عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال : [قال رسول ا A على المنبر : من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر ا والتحدث بنعمة ا شكر وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب] وإسناده ضعيف وفي الصحيحين عن أنس أن المهاجرين

قالوا يا رسول ا ذهب الأنصار بالأجر كله قال : [لاما دعوتم ا لهم وأثنيتم عليهم] وقال أبو داود : حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي A قال : [لا يشكر ا من لا يشكر الناس] ورواه الترمذي عن أحمد بن محمد عن ابن المبارك عن الربيع بن مسلم وقال صحيح .

وقال أبو داود : حدثنا عبد ا بن الجراح حدثنا جرير عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي A قال : [من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ومن كتمه فقد كفره] تفرد به أبو داود وقال أبو داود : حدثنا مسدد حدثنا بشر حدثنا عمارة بن غزية حدثني رجل من قومي عن جابر بن عبد ا قال : قال رسول ا A : [من أعطي عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثن به فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره] قال أبو داود : ورواه يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل عن جابر كرهوه فلم يسموه تفرد به أبو داود وقال مجاهد : يعني النبوة التي أعطاك ربك وفي رواية عنه القرآن وقال ليث عن رجل عن الحسن بن علي { وأما بنعمة ربك فحدث } قال : ما عملت من خير فحدث إخوانك وقال محمد بن إسحاق ما جاءك من ا من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها وادع إليها قال : فجعل رسول ا A يذكر ما أنعم به عليه من النبوة سرا إلى من يطمئن إليه من أهله وافترضت عليه الصلاة فصلى